مركز المسبار للدراسات والبحوث
Al Mesbar Studies & Research Centre

الإسلاميون والعلوم الاجتماعية

التضليل بالمعرفة

الكتاب 157 يناير (كانون الثاني) 2020

كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

توظيف الإسلاميين للعلوم الاجتماعية والإنسانية: مناهج ومجالات

عبدالغني عماد(*)

في الواقع ليس جديداً اهتمام السوسيولوجيا بالظاهرة الدينية، فقد ارتبط ذلك باهتمام منظريها وروادها الأوائل الذين وضعوا المجتمع والعلاقات الناظمة لسلوك الجماعات كوحدة تحليل مرجعية قبل الفقه واللاهوت والمنتجات الذهنية، لذا تركز الاهتمام على الممارسة السلوكية في الواقع المعيش وما تعتمد عليه المجموعات البشرية من معتقدات وتفسيرات للنصوص الدينية من منطلق موقع الإنسان والجماعات في البنية الاجتماعية.

(*) أستاذ جامعي وباحث أكاديمي لبناني متخصص في الحركات الإسلامية.

يختلف منطلق السوسيولوجيا والعلوم الاجتماعية والإنسانية منهجياً عن العلوم الدينية واللاهوتية وكذلك عن الاستشراق، فالأول يسعى إلى تحليل السلوك الديني في الحياة اليومية، وما يستند إليه من تفسيرات خاصة بالنصوص الدينية في السياق الاجتماعي والتاريخي، ومن منطلق التناقضات والصراعات القائمة داخل المجتمع وفي علاقاته بمجتمعات وحضارات أخرى، في حين يذهب الاستشراق باتجاه تقديم تفسيرات خاصة للنصوص والوقائع والأحداث الدينية في الشرق، بمعزل عن سياقها الاجتماعي والتاريخي، متجاوزاً الخلفية المعرفية الغربية التي ينطلق منها، ودون أن يستعمل أدوات منهجية تحدّ من الانحيازات المنهجية الفاضحة التي أصابت بعض دراساته في أغلب الأحيان.

الحداثة: الدين والتديُّن

أكّد إميل دوركايم (Émile Durkheim) (1858-1917) الوظيفة الإيجابية للدين باعتبارها تعزز التماسك الاجتماعي، معتبراً أن «روح الدين» هي في الواقع «فكرة المجتمع» نفسه، فالدين هو رمز المجتمع والمعبّر عن وحدته، وبذلك تكون وظيفة الدين الأساسية هي تعزيز وحدة المجتمع وتماسكه وإعطاء الشرعية لقيمه ومعاييره، وإضفاء القداسة عليها، وبتجميع الناس معاً في هوية موحدة من خلال ممارسة الشعائر والطقوس الدينية[1]. تتمثل إحدى فوائد المقاربة الدوركايمية في التشديد على الجوانب الدينامية في الشعور الديني، حيث يرى عالم الاجتماع الفرنسي أن الدين قوة تسمح بالتصرف والفعل.

ناقش كثيرون العلاقة بين الحداثة والتدين، وشكل ذلك بحثاً محورياً بين علماء الاجتماع، وذهب ماكس فيبر (Max Weber) (1864-1920) إلى أن «الحداثة» هي نتاج «عقلنة الدين» الذي سمح بلعب أدوار جوهرية في انبثاق مشروع الحداثة والرأسمالية، بل وحتى الديمقراطية. فالدين يتصل بالحياة العملية ولا ينفصل عن الحياة الدنيا، لذلك يرفض تعريف الدين باللامعقول، إذ هو في

(1) Emil Durkheim, the elementary forms of the religious life, translated from the French by Joseph word swain, free press paperbacks (New york, free press, 1965, pp 236-245 and 462.

كثير من وجوهه أعمال منطقية وعقلانية نسبياً. يلتقي صاحب «نزع السحر عن العالم» مع ملاحظات ألكسيس دي توكفيل (Alexis de Tocqueville) (1805-1859) الذي لاحظ كيف يعمل الدين على تطوير الديمقراطية في دراسته الرائدة عن المجتمع الأميركي[2] وكيف يتطابق ذلك مع النظرة إلى المصلحة الدنيوية، وهو الأمر الذي عمل عليه فيبر لسنوات في أطروحته المتفردة عن «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية»[3] والذي أصدره عام 1905، وهي بالمحصلة أبحاث تتعارض مع الفرضية القائلة بأن الحداثة مؤدية إلى تراجع دور الدين.

سادت **ثلاثة** نماذج من التعامل مع العلوم الإنسانية والاجتماعية بين الإسلاميين: **الأول** يميل إلى التشكيك في تلك العلوم ومنتجاتها، أو على الأقل التقليل من شأنها، وهو ناتج عن قلّة اطلاع وسوء فهم لبعض نظرياتها، وقد ظلّ هذا الاتجاه محافظاً على نمط تقليدي من البحث، يتميّز بدراسة النصوص والتراث والأحداث بوصفها أجزاءاً متفرّقة، دون امتلاك نظريات عامة ورؤية لفهمها ضمن أنساق، مع التمسّك بكتابات قديمة والاحتفاء بها دون تجديد. في حين ذهب النوع **الثاني** إلى النقيض، فقد انبهر بتلك العلوم، وراح يعمل على أسلمتها وإدماج أطروحاتها ومفاهيمها في مشروع يعمل عليه تحت عنوان «التأصيل الإسلامي للمعرفة». بينما ذهب تيار **ثالث** إلى الجانب العملي، إذ فضل التعامل مع منتجاتها وعلومها التقنية والتطبيقية والخدمية.

يشمل مصطلح الإسلاميين في هذه الدراسة الناشطين حركياً وسياساً وتنظيمياً ضمن مختلف الاتجاهات والمشاريع الأيديولوجية، كما يشمل الناشطين أكاديمياً ومعرفياً ضمن مشاريع ومؤسسات بحثية هادفة إلى أسلمة المعرفة والعلوم الاجتماعية والإنسانية، أو التأصيل الشرعي لمفاهيمها.

---

(2) ألكسيس دي توكفيل: الديمقراطية في أميركا، ترجمة: أمين قنديل، عالم الكتب، القاهرة، ج 2، 2001، الفصل التاسع، ص498.

(3) ماكس فيبر: الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990.

التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية: أسلمة المعرفة

بعد أن أنهى رائد التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية إسماعيل الفاروقي دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت (1941) ثم درس فلسفة الأديان في جامعة هارفرد وإنديانا؛ توجه إلى الأزهر لمدة أربع سنوات (1954-1958) ليبني ثقافة إسلامية رصينة، انتقل بعدها إلى باكستان عام 1961 ليساهم في تأسيس معهد البحوث الإسلامية في كراتشي، ثم عاد إلى أميركا ليعمل أستاذاً بجامعة شيكاغو، وتنقل بين جامعات عدة إلى أن استقر بجامعة تمبل حيث «مات» عام 1986.

في مجال أسلمة المعرفة، وضع الفاروقي الأسس النظرية لإعادة صوغ العلوم الإنسانية والاجتماعية المعاصرة وفق الرؤية الإسلامية، بحيث تصبح هذه العلوم رافداً إيجابياً لثقافة المسلمين، لا سيلاً جارفاً يجرفهم ويهدد هويتهم. وقد شخص الفاروقي داء المسلمين المعاصرين في نظامهم الفكري والتعليمي السائد وانعدام الدافع القوي والفكرة المحركة في ثقافتهم. وندد بازدواجية التعليم بين ديني تقليدي ومدني معاصر، مما أنتج ذاتاً منشطرة مهزوزة، لا تحسن غير التقليد، تقليد الأجداد الذين رحلوا، أو الغربيين المختلفين دينياً وثقافياً. بينما المطلوب هو تعليم واحد تسري فيه الروح الإسلامية من خلال تدريس مادة الحضارة الإسلامية في الجامعات والأقسام بغض النظر عن التخصص. أما المتخصصون في الدراسات الإسلامية المعاصرة، فلا بد لهم أن يضطلعوا بالعلوم الإنسانية الحديثة لإثراء ذواتهم وبناء قدراتهم النظرية، لتكون على مستوى الثقافة العقلية المعاصرة.

إذن، أمكّن عام 1972 تأسيس جمعية العلماء الاجتماعيين المسلمين من قبل اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الأميركية وكندا. كان حدثاً هاماً للتفكير في ربط العلوم الاجتماعية بالقيم الإسلامية. وبالفعل بادرت هذه الجمعية إلى عقد مؤتمرات وملتقيات، وانتهت إلى إنشاء المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي -كما أشرنا- أخذ على عاتقه إطلاق مشروع أسلمة المعرفة الذي قاده إسماعيل الفاروقي. من هذه الانطلاقة تبنى عدد من المفكرين الإسلاميين المعاصرين والأساتذة

الجامعيين الذين يدرسون العلوم الإنسانية والاجتماعية أفكاراً من وحي هذا المشروع. وينتمي هؤلاء إلى **أربع مجموعات**:

الأولى: دارت حول المعهد العالمي للفكر الإسلامي (عماد الدين خليل، جابر العلواني، الحاج حمد أبو القاسم...).

الثانية: المرتبطة بالجامعة الإسلامية في ماليزيا، والتي نادت بأسلمة المعرفة الإنسانية وليس كل المعرفة (سيد محمد نقيب العطاس).

الثالثة: تمثلت بمجموعة مصرية عملت بجامعات خليجية.

وأخيراً، المجموعة المصرية (محمد عمارة، عبدالوهاب المسيري). ثم انتشرت بعدها المحاولات الفكرية التي اتخذت في الغالب شكل الدراسات والأبحاث[4].

جاذبية العلوم التطبيقية

ما يلفت نظر الباحثين، تلك الهجرة من حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية إلى العلوم التطبيقية، التي أصابت الحركات الإسلامية، وخصوصاً إلى مجال الهندسة والطب منذ سبعينيات القرن الماضي، وذلك على شكل موجة نزوح جماعي. وأفضل من عبر عن ذلك عبدالفتاح مورو، نائب رئيس حركة النهضة التونسية، في أحد المؤتمرات التي عقدتها الحركة للشباب، معبراً فيها عن الجنايات التي ارتكبتها الحركة الإسلامية على شبابها قائلاً: «عندما أردنا أن ننفتح على العالم الجديد والجامعة، قلنا لأبنائنا: تعلموا الطب والهندسة، فخرجنا مجموعة كبيرة من الشباب الخدمي لا علاقة له بالفكر أصلاً. بينما المدرسة التي من شأنها أن تُوجد مُغيّري العالم هي مدرسة الفكر والعلوم الإنسانية، تلك التي هجرها الإسلاميون حتى أصبحوا عاجزين عن فهم الحراك الاقتصادي والحراك الاجتماعي، لأننا لم ندرس الاجتماع ولا التربية ولا السياسة ولا الاقتصاد ولا العمران». والواقع أن شيئاً

(4) ساري حنفي: أسلمة وتأصيل العلوم الاجتماعية: دراسة في بعض الإشكاليات، مجلة المستقبل العربي، بيروت، (العدد 451) ص48.

من النفور راح ينتشر بين الإسلاميين تجاه العلوم الاجتماعية والإنسانية باعتبارها علوماً تنظيرية غير مفيدة، وهو ما جعل غالبية كوادرهم تفضل الكليات التطبيقية عليها، وبالفعل كان من نتائج ذلك أن الزيادة الملحوظة لطلاب الإخوان المسلمين منذ السبعينيات في أكثر من مكان من العالم من كليات وجامعات عواصم العالم العربي، وخصوصاً في كليات الهندسة وإدارة الأعمال والعلوم، ويحصي أحد الباحثين ستة من أصل سبعة من قيادات حزب الحرية والعدالة في القاهرة من خريجي كليات الطب والهندسة، وخمسة عشر من أصل ثمانية عشر قيادياً من أبرز قيادات الجماعة في فترة ثورة يناير (كانون الثاني) ينتمون لخلفيات طبية وهندسية وتقنية[5].

لا شك أن الإقبال الكثيف من قبل الطلاب الإسلاميين على الكليات التطبيقية، كالطب والهندسة، ساهم في تكوين رأسمال رمزي في المجتمع، فهو يساعد من جهة في لعب دور مجتمعي ومؤثر في المجال العام، وهو يكمل الدور الدعوي ويسمح بتقديم الخدمات التقنية والطبية من جهة ثانية.

أدى هذا الانسحاب من كليات العلوم الاجتماعية والإنسانية إلى اعتبار الانشغال بمباحث الفكر والفلسفة والاجتماع والأنثروبولوجيا، وغيرها من العلوم الإنسانية، نوعاً من التنظير وتضييع الوقت والجهد، بعيداً عن ساحة «الميدان» والجهاد الفعلي، بل أدى بالبعض من الإسلاميين إلى اعتبار هذه العلوم خصوصاً بالعلمانيين، الذين بالفعل راحوا يهتمون بها ويركزون من خلال كوادرهم على دراستها.

هذه الوقائع دفعت ببعض الباحثين إلى دراسة أعمق تتعلق بمحاولة كشف دور الاختصاص وتأثيره في تحديد الاتجاه نحو التطرف والعنف بين الإسلاميين. في هذا الصدد صدر كتاب بعنوان «مهندسو الجهاد: العلاقة بين التطرف العنيف والتعليم»، وهو من تأليف كل من «دييجو جامبيتا» (Diego Gambetta) أستاذ علم الاجتماع

(5) محمد فتوح: مهندسون وأطباء فقط.. لماذا هجر الإسلاميون دراسة العلوم الإنسانية؟ (تاريخ الدخول 29 /8/ 2019) ينظر الرابط التالي:
https://midan.aljazeera.net/reality/community/2018/9/27/%D9%85%D9%87%D9%86%D8%AF%D8%B3%D9%88%

في معهد الجامعة الأوروبية بفلورنسا، والحاصل على الدكتوراه في العلوم الاجتماعية والسياسية من جامعة كامبريدج البريطانية، وعمل أستاذًا زائرًا بجامعة شيكاغو، و«ستيفين هيرتوج» (Steffen Hertog) أستاذ مشارك في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، وقد درسا في كتابهما القابلية للتطرف وعلاقته بطبيعة الدراسة من خلال التخصصات التعليمية لعينة من (207) من الذين ثبت تورطهم في عمليات إرهابية، تبين أن (93) منهم تخصصوا في الهندسة و(21) في الطب وحوالي (12) في الاقتصاد والأعمال، في حين تخصص (8) فقط في الرياضيات والعلوم، والباقون في الدراسات الإسلامية.

وحسب النتائج التي تضمنها الكتاب، فإنه من بين (93) خريج هندسة، هناك (38) منهم قيادات في الجماعات المتطرفة؛ أي بنسبة حوالي (41٪). ويضيف الكتاب أن ثمة مؤشرات قوية على وجود علاقة بين التطرف ودراسة الهندسة، وهو أمر لا يقتصر على الوقت الراهن، ولكنه يمتد إلى عقود مضت، ويضربون أمثلة عديدة على ذلك، منها أن مُنفذي هجمات 11 سبتمبر (أيلول) 2001 في الولايات المتحدة كان من بينهم ثمانية مهندسين. كذلك ظهرت في مصر، خلال سبعينيات القرن الماضي، مجموعة متطرفة تسمى «جماعة التكفير والهجرة» كانت بقيادة «شكري مصطفى»، وكان مهندسًا زراعيًا.

خلص الباحثان إلى ملاحظة لافتة للانتباه، مفادها أنه على الرغم من اختلاف الخصائص البيوغرافية والاجتماعية، والتاريخ الوظيفي للمنتسبين إلى حركات الإسلام السياسي العنيف، فإن غالبية الجهاديين في الشرق الأوسط كانوا من دارسي التخصصات التطبيقية في الهندسة والطب أكثر من الآداب والعلوم الاجتماعية، وهو ما يحاولان تفسير أسبابه في بحثهما[6]. ووفقاً لدراسة قامت بها مؤسسة كارنيغي في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد ثبت أن المهندسين هم أكثر الأكاديميين تدينًا على الإطلاق (66.5٪)، علاوة على أن (44٪) ثبت أنهم

(6) Engineers of Jihad ,The Curious Connection between Violent Extremism and Education - https://www.sociology.ox.ac.uk/materials/papers/2007-10.pdf

«متدينون» و«محافظون» في الوقت ذاته، يليهم بعد ذلك الاقتصاديون، ثم الأطباء ودارسو العلوم، والإنسانيات والفنون، ثم القانون وأخيرًا العلوم الاجتماعية، على الترتيب.

إذن، ما المصادر التي تؤثر في تشكيل عقلية دارسي الهندسة -بخلاف دراسة موضوعات الهندسة- وتجعلهم أكثر ميلاً لتبني الفكر المتطرف؟ وفي هذا السياق أشارت بعض الدراسات إلى أن الهندسة تجعل الخريجيين أقل قدرة على استيعاب الطبيعة الارتباطية المتداخلة، التي تتسم بها العمليات والعلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وبالتالي فهم أقل قدرة على التعامل مع العالم المحيط باعتباره نتيجة تفاعلات متزامنة من عمليات معقدة. وفي المقابل، يفترض هؤلاء الطلاب أن كل ما حولهم له طبيعة ميكانيكية «عقلانية» أقرب إلى ما هو عليه الحال في طريقة عمل الماكينات والآلات، بما يجعلهم أكثر تقبلاً لفكرة واحدية النظام إلى حد قولبته. أضف إلى ذلك أن طبيعة دراستهم لا تقترب من المعتقدات الدينية بأي شكل من الأشكال، على الأقل طوال فترة دراستهم التي تمتد إلى خمس سنوات، فهم غير معرضين للوقوف أمام النصوص الدينية والتفكير فيها بشكل نقدي؛ وهو ما ينتج في النهاية شخصًا أكثر تقبلاً للنص، وأكثر قابلية للتأثر بالحجج التي تقدمها الجماعات المتطرفة عند أول احتكاك معها[7].

الاتجاه المؤسساتي: الخدمات في العمق الاجتماعي

ذهب تيار آخر من الإسلاميين باتجاه العمل المؤسساتي والخدماتي والتربوي فتركزت أعماله، لأسباب عديدة على بناء اتجاهات عدة:

أ- بعضها تخصص **بالعمل التربوي والتعليمي** وقدم تجارب ناجحة في أكثر من مكان، واستطاع أن يحصل على تمويل معتبر من جهات مانحة وخيرية عربية ودولية عديدة، بحجة أن هذا النوع من العمل يخدم فكرة الإسلام والدعوة بالأساس.

(7) أحمد ونيس: هل تُقدر التنظيمات الإرهابية «العلميون»؟ انظر (تاريخ الدخول 29 /8/ 2019) على الرابط التالي:
https://www.aman-dostor.org/7530

تبلور هذا الاتجاه مبكراً في أكثر من بلد عربي إسلامي، وهو ارتبط بمشروع الطهطاوي ومن ثم محمد عبده، وتمكن خلاله الإسلاميون من بناء عمقهم الاجتماعي والتربوي. في الواقع لم يأتِ هذا التأثير ليطور المنهج النقدي ومهارات التفكير الناقد والعقلانية، والتي هي من الخصائص الأولية التي من المفترض أن تنهض بها نظم التطوير التربوي، لكنها جاءت كتغلغل دعوي وأيديولوجي، تضمن تحيّزات تعليمية وتربوية، مع ذلك نجح بعضها في بدايات تأسيسه، في توظيف العلوم الاجتماعية ومنتجاتها العقلانية الحديثة في الفلسفة والعلوم لتطوير مناهج وتدريب أساتذة، ومن ثم تطوير هذه المؤسسات لتصبح نقطة جذب وعلامة ضوء في مراحل لاحقة وسيخرج منها أسماء لامعة.

لا تكاد تخلو مدينة أو بلدة من تجارب تربوية مهمة، منها ما كان تحت إشراف الإخوان المسلمين بشكل مباشر أو غير مباشر، ومنها ما كان مستقلاً عنهم في منهجه ومقاربته، ومنها ما كان مستقلاً من حيث التمويل ومنها ما دخل عليه ما يعرف بـ«إسلام السوق» الذي رصده ودرسه باتريك هايني[8] فيما بعد. يقدم لنا ديفيد تيتنسور (David Tittensor) في كتابه عن حركة «الخدمة» التابعة لفتح الله غولن، قراءة ميدانية تكشف كثيراً من الأسرار، إذ أقام ثلاثة عشر شهراً في تركيا بهدف الاقتراب من التجربة اليومية لحركة غولن، وأجرى لقاءات مع عديد من أفرادها وطلابها ومن يتعامل معها. طبعاً ثمة دراسات كثيرة أخرى، لكن ما يهمنا هنا الانتشار السريع الذي حققته تربوياً، والثروة الهائلة التي تمتلكها، والتي قدرتها وزارة الخارجية الأميركية بأكثر من خمسة وعشرين مليار دولار[9].

في الواقع، ثمة تجارب أخرى أقل حجماً، لكنها كانت أكثر فعالية ونجاحاً على مستوى إثارة الأسئلة الصعبة فيما يتعلق بإشكاليات التربية المعاصرة، وقد حاولت

---

(8) باتريك هايني: إسلام السوق، ترجمة: عومرية سلطاني، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، 2015.

(9) انظر: الإسلاميون والعمق الاجتماعي في العالم العربي وتركيا، مجموعة باحثين، الكتاب الأول بعد المئة، مايو (أيار) 2015، مراجعة لكتاب «بيت الخدمة: حركة كولن وطريق الإسلام الثالث»، (The House of Service: The Gulen Movement and Islam's Third Way) قراءة عبدالله حميد الدين، ص341.

الانخراط فيها مستفيدة من منجزات سوسيولوجيا التربية، ومختلف حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ب- **الاتجاه المؤسساتي الخدماتي والصحي**: في الواقع هذا المجال من أكثر المجالات التي أفادت من تطور العلوم الاجتماعية التطبيقية، وأدمجت كثيراً من المجالات الخدماتية والصحية والرعائية للمسنين والأطفال وأصحاب الحاجات الخاصة، بل حتى رعاية الشباب، والرعاية الاجتماعية الطبية في الأحياء والقرى النامية.

هذا الاتجاه الذي اختار التخصص بالخدمات الاجتماعية والصحية، مستفيداً من أساليب الخدمة الاجتماعية التي أدخلتها العلوم الاجتماعية على المجتمعات الحديثة والمناهج الجديدة في كلياتها وفي برامج التنمية المستدامة، مطوراً بعض مفاهيم الوقف الإسلامي، دامجاً إياها مع مفاهيم العلوم الاجتماعية الحديثة[10]، ساهم هذا الاتجاه بشكل كبير بتعزيز حالة الاستقطاب، وجعل من خريجي الإسلاميين يظهرون بشكل جديد بعيداً عن التنظير والكلام، ومعه دخلوا العمق الاجتماعي فعلاً.

يمكنك أن تعدد المئات والعشرات من مؤسسات الخدمة الاجتماعية والرعائية والإنمائية المنتشرة في مناطق العالم العربي والإسلامي كافة (مستوصفات، مستشفيات، مؤسسات رعاية، تدريب وتأهيل...)، فكثير من مؤسسات الوقف طورت خدماتها، وتم تقديم بعض الاجتهادات التي تفتح الباب نحو تقبل بعض نظريات ومنتجات العلوم الاجتماعية والإنسانية الحديثة، حتى في مجال التنمية والبلديات والحوكمة والشراكة، حصل الكثير من عمليات التكامل والإفادة.

ج- **الاتجاه المصرفي والمالي**: إن العمل المصرفي الإسلامي قائم أساساً على مبدأ المشاركة في الأعمال بين البنك من جهة والمودع من جهة أخرى؛ وهذا

(10) على سبيل المثال: نظام الوقف والمجتمع المدني في الوطن العربي. بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية والأمانة العامة للأوقاف بدولة الكويت (2010).

ما يستتبع تقاسم الأرباح والخسائر. ويلاحظ كظاهرة، أن المصارف الإسلامية استقطبت منذ بداية نشاطها، مطلع السبعينيات من القرن الماضي، صغار الحرفيين والمودعين الذين لا يريدون أن يقعوا في إثم «الربا». واستطاعت خلال ثلاثين سنة أن تحوز على كثير من المدخرات. فالمصارف الإسلامية تعتمد في أساس فلسفتها البعد الاجتماعي والإنمائي، والعناوين الائتمانية، وليس البعد الاقتصادي أو المصرفي الذي يقتصر على الربح وحسب[11]. وهي تعنى بتقديم مساعدات وإعانات لشرائح محتاجة، كدور الأيتام، والمستشفيات والمدارس. وهذا البعد الاجتماعي ميزها، إضافة إلى القروض الإنمائية طويلة الأمد منخفضة الفائدة، طبعاً هذا ميزها عن المصارف التقليدية التي تسارع اليوم إلى إعطاء أبعاد اجتماعية لأعمالها لكي تتمكن من منافسة البنوك الإسلامية في استقطاب صغار المدخرين والمودعين في كثير من مناطق العالم الإسلامي.

توقع البعض أن ظاهرة البنوك الإسلامية سوف تنهار واحدة تلو الأخرى، لكنها -كما يبدو- صامدة، فمن بنك البركة إلى التمويل الإسلامي إلى البنوك الخليجية وغيرها، ثمة تطور في الأداء والأساليب، وهو ما يجعل هذا الحقل منذ أن بدأ يتحول إلى ميدان عمل فاعلية متحركة بشكل دائم.

الدراسة في الحقل والكتابة في الميدان

يفسر لنا ذلك رواج سوق الدراسات السوسيولوجية الإسلامية الجديدة، وبروز مجموعة من الباحثين «النجوم» المتخصصين، وخصوصاً في الساحة الأوروبية في ما أصبح يعرف اليوم بالإسلامولوجيا الجديدة، مع التحفظ على هذا المصطلح، وذلك منذ أن دشن أوليفييه كاريه (Olivier Carré) الباحث في علم الاجتماع السياسي تلك الكتابات، مناقشاً فرضية انبثاق إسلام عربي تقدمي، باعتبار أن التدين ظاهرة دائمة وجوهرية في المجتمعات العربية، منذ ذلك الحين بدأ ما يسميه الأكاديمي والباحث اللبناني جلبير الأشقر «الاستشراق معكوساً» في الغرب، وظهرت

(11) عبداللطيف حمزة: المصارف الاستثمارية الإسلامية، النظرية والتطبيق، طبع في أكاديمية أكسفورد العليا. انظر الرابط :
https://books.google.com.lb/books?id=SPxpCwAAQBAJ&pg=PA67&lpg=PA67&dq=%D9%82%D9%8A%D

معها تيارات ما بعد عام 1979 في الدراسات الإسلامية الفرنسية[12].

يؤرخ هذا الزمن لمشهد وتحولات بمنتهى الأهمية، منها: إسقاط نظام الشاه، وتأسيس الجمهورية الإسلامية في إيران، وقيام «حركات المجاهدين» في أفغانستان ضد الحكومة اليسارية بدعم أمريكي، الأمر الذي أدى إلى اجتياح سوفيتي للبلاد، هذه الأحداث شكلت محوراً لنقاشات فكرية وتجاذبات سياسية، في صفوف اليسار الفرنسي تحديداً قبل أن يتمدد أوروبياً، والواقع أن أشهر المفكرين اليساريين الذي خضعوا لإغواء «الثورة الإسلامية» في إيران لم يكن مسلماً ولا من الشرق الأوسط، بل لم يكن إلا الفيلسوف ميشيل فوكو (Michel Foucault) في مرحلة معروفة من عمره. على أنه ينبغي القول: إن تحليلات فوكو لتطورات الثورة الإيرانية، وبقراءة سريعة لم تكن ضمن مجال خبرته واختصاصه بالتأكيد.

ثمة ثلاثة ملامح أساسية تسم مجموعة من الباحثين في حقل الدراسات الإسلامية ما بعد سنة 1968، قام بتحليلها واحد من أبرز أعضاء تلك المجموعة، وهو الباحث الفرنسي في الشؤون الإسلامية، أوليفييه روا (Olivier Roy). أولها أن معظم أفرادها ينتمون إلى حقلي العلوم السياسية أو علم الاجتماع السياسي، في حين كان الجيل السابق لا يزال متجذراً أساساً في المناهج التقليدية المتعلقة بالدراسات الاستشراقية كالتاريخ والإثنولوجيا (علم الأعراق البشرية) أو الفيلولوجيا (فقه اللغة المقارن). ومعظمهم تناولوا الحركات الإسلامية السياسية الراديكالية بوصفها الشعار الواضح للمرحلة، وهو ما يؤشر على علاقة واضحة بتخصصهم في المجال السياسي، وفي هذه الأثناء كانت الأكاديمية الفرنسية تشهد تدهوراً حاداً في مكانة أفرادها ودخلهم النسبي. وعليه، بتعبير ملطف، كان أمام باحثي الجيل الجديد –آنذاك– حافز قوي للبحث عن مصادر دخل إضافية. وأحد المصادر –وهو الذي يشكل الملمح الثاني (الذي لا يشمل الجميع طبعاً ولكنه كان من السعة بحيث يمكن عده ملمحاً أساسياً)– هو أن يصبح الباحث «مستشارا» لمؤسسات الشؤون الخارجية ووزارة الدفاع. ومثل هذه الفرص لم تكن أمراً، بالنسبة إلى أبرز «خبراء» هذه

(12) جلبير الأشقر: الاستشراق معكوساً: تيارات ما بعد العام 1989 في الدراسات الإسلامية الفرنسية، 2008، الحوار المتمدن.

المجموعة، مقتصراً على فرنسا. أما أحد المصادر البديلة الأخرى فكان العمل عبر وسائل الإعلام، سواء على شكل مكافآت شرفية مباشرة يتقاضاها هؤلاء الباحثون لقاء «خبرتهم» أو كوسيلة لزيادة مبيعات كتبهم. وهكذا، فإن الظهور المكثف في وسائل الإعلام (Intensive Médiatisation) هو الملمح المميز الثالث لباحثي اليوم [من الفرنسيين] في شؤون الإسلام والعالم العربي. وبالإمكان تعميم هذا الأنموذج، فنقول: إن ملامح شبيهة تسم حقل الدراسات الإسلامية اليوم في كل البلدان الغربية.

على أن الملمحين الأخيرين -أي الميل إلى بيع الخبرة إلى المؤسسات الحكومية، والظهور المكثف في وسائل الإعلام- لم يطاولا كل عضو في مجموعة باحثي الدراسات الإسلامية، ذلك أن بعضهم قاوم الإغراء مدة من الزمن. يلاحظ أوليفييه روا، وهو من أقطاب «الاستشراق الفرنسي الجديد» أن: «الدراسات الإسلامية انتقلت عندنا من فترة المستشرقين الكلاسيكيين الذين كان اهتمامهم منصبّاً أساساً في التخصص في مجالات دراسة القرآن والتاريخ الإسلامي واللغات والآداب الشرقية، أمثال: مكسيم رودنسون، وجاك بيرك، وكلود كاهين، إلى جيل جديد من الباحثين المتخصصين أساساً في السوسيولوجيا والعلوم السياسية. هذه الفئة الجديدة من الباحثين لا ترى أن الدراسات الفقهية القرآنية أو التاريخية هي أداتها الرئيسة في دراسة الظواهر الإسلامية المعاصرة وتحليلها، بل المحكّ بالنسبة لها هو البحوث الميدانية. المستشرقون الكلاسيكيون كانوا يرون أن تعلّم القرآن ودراسته، والتخصص في مجال التاريخ الإسلامي هو المفتاح العلمي الذي يؤهلهم لفهم الظواهر الإسلامية وتحليلها، بما في ذلك المعاصرة منها. أما جيلنا الحالي، فقد تجاوز هذه النظرة الضيّقة، وأصبحت دراسة القرآن والتاريخ واللغات والآداب الشرقية لا تعدو أن تكون أدوات بحث يستعين بها خلال تنقلاته وأسفاره ودراساته الميدانية.

سنلاحظ أن بداية أوليفييه روا هي بداية جيل جديد من الباحثين الغربيين في الإسلام؛ جيل قطع مع الرؤية الاستشراقية النصية، واتجه لتطبيق مناهج العلوم الاجتماعية الميدانية على العالم الإسلامي الذي لم يكن بحاجة -في رأيهم- إلى

علوم «خاصة» لدراسته والبحث في قضاياه. شكل روا إلى جانب عدد من الباحثين الفرنسيين جيلاً من الباحثين الذين عاصروا انطلاق الموجة الجديدة من البحث في الإسلاميات، لكن عبر بوابة العلوم الاجتماعية، لا سيما علم الاجتماع السياسي وعلم الاجتماع الديني. بحيث تم التركيز على الحركة الإسلامية بوصفها حركة اجتماعية، مع ما يتضمنه ذلك من تحديات الخروج بها من دائرة الأحكام المسبقة واللاتاريخية التي ميزت البحث في التراث الاستشراقي؛ كان ذلك يعني بالنسبة لهؤلاء أولوية السوسيولوجي على الأيديولوجي، وتقديم البحث والاستطلاع الميداني والتجارب اليومية، والملاحظة بالمشاركة والدراسة بالعينة على تحليل النصوص الأصولية كما جرت عليه العادة. لذلك اتجهوا إلى الوجود في المناطق الإسلامية المختلفة وخصوصاً في مناطق النزاع والصراع، والاختلاط بالمسلمين بل وتعلم اللغة العربية، والأهم من ذلك ملاحظة الإسلام المعيش عن كثب، ومعايشة نمط التدين السائد باعتباره خبرة إنسانية أكثر من الدين نفسه كنص إلهي متعالٍ.

ساعدتهم **خبرتهم الحركية اليسارية** في التركيز على الإسلام الحركي، أكثر من التاريخي أو العقدي، وإن تباينت مواقعهم من مناضلين (ميشيل سورا وأوليفييه روا وجيل كيبيل وفرانسو بورجا) أو منتمين فكرياً (آلان روسيون)، وكان الإسلام الحركي في صعود سريع يستقطب الأقلام من مختلف الاتجاهات، وخصوصاً مع اندلاع الثورة الخمينية في إيران، وبداية الجهاد في أفغانستان، ونجاح الإسلاميين المصريين في اغتيال الرئيس أنور السادات، حيث تصاعدت الأطروحة الإسلامية السياسية لتحتل المشهد في مصر وشمال أفريقيا، فانفرد كل منهم بمسار أو بمنطقة صارت موضوع اهتمامه الأبرز؛ فكتب روا عن «الإسلام والحداثة السياسية» في معركة الجهاد الأفغاني، وعمل على عدد مهم من الأبحاث التي أثارت جدلاً واسعاً منها: الإسلام السياسي (1992)، جينالوجيا الحركات الإسلامية (1995)، وتجربة الإسلام السياسي (1996)[13]، ثم عولمة الإسلام السياسي وغيره. واشتغل جيل كيبيل (Gilles Kepel) على معركة «النبي والفرعون» في مصر[14]، وصك فرانسوا

(13) يوجد ترجمة له صادرة بالعربية عن دار الساقي، بيروت، 1996.

(14) جيل كيبيل: الفتنة، حروب في ديار المسلمين، دار الساقي، بيروت، 2004؛ أيضاً انظر كتابه: النبي والفرعون، دار الكتاب الحديث،

بورغا (François Burgat) عنوانه «الإسلام السياسي... صوت الجنوب».

أهم ما يجمع هؤلاء من الناحية المنهجية هو تهميشهم للبعد الديني في التحليل وتركيزهم على البعد السوسيولوجي والميداني والسياسي في قراءة مسار الحركات الإسلامية التي صاروا ينعتونها بـ«الإسلام السياسي» بدلاً من الحركات الأصولية، ذلك أنها حركات سياسية اجتماعية بامتياز بنظرهم؛ والدين بالنسبة لها مادة قابلة للتوظيف أيديولوجياً يستخدم في معركة التغيير الاجتماعي والسياسي، وبتعبير بورغا، الدين لغة يتحدث بها الإسلاميون لكن محركهم –في رأيه– هو الرغبة في التمرد على سيطرة الشمال[15].

في الواقع شكلت الدراسات التي اطلع عليها الباحثون العرب، والتي قدمها هؤلاء الباحثون الأوروبيون بمناهجهم الجديدة، بالنسبة للباحثين من الإسلاميين وغيرهم، نموذجاً جديداً ومختلفاً عن ذلك الذي ألفوه وغاب عنه البعد الميداني والإحصائي والتطبيقي، هذه الدراسات شكلت نوعاً من الاحتكاك البحثي، تطور إلى تيار تتلمذ على يديه في المعاهد والجامعات الفرنسية والأوروبية مجموعة متزايدة من الباحثين العرب والمسلمين، أنتجت بالمشاركة مع أساتذتها وتحت إشرافها مجموعة من الأبحاث والدراسات الميدانية التي تعتبر رائدة في ميدانها. عاد كثير من هؤلاء إلى جامعاتهم ناقلين ما تعلموه من علوم ومنهجيات ومقاربات جديدة إلى طلابهم.

في الواقع، شكلت بعض التجارب حاضنة هامة لبعض الباحثين العرب في احتكاكهم مع الأجانب، من أبرز هؤلاء الباحث المصري في حركات الإسلامية حسام تمام، الذي قدم مساعدة مهمة لمشروع باتريك هايني (Patrick Haenni)، والذي جاء ضمن النقاشات المثمرة التي أدارها أوليفييه روا حول عولمة الإسلام. كنت متابعاً لهذه التجربة منذ بدايتها، وفي مناقشاتي المستفيضة كنت أحذر من تضخيم ظاهرة إسلام السوق، لكن المهم أن فكرة المرصد أو الحاضنة الدراسية للحركات الإسلامية

بيروت، 1988.

(15) فرانسوا بورغا: الإسلام السياسي صوت الجنوب. ترجمة: لورين زكرى، دار العالم الثالث، ط 2، 2001.

التي أطلقها حسام، تحولت مع الوقت لدى باحثين كثر إلى منهج.

بدأنا نلحظ ملامح التشابك التحليلي بين الجانب النظري والتطبيقي- الإحصائي في دراسات وأبحاث عديدة في دراسة الحركات الإسلامية والحقل الإسلامي بشكل عام[16]، كما راح عديد من الباحثين يجيد التدرب على الربط بين تحليلات الماكرو- والميكرو، واختيار العينات بشكل جيد، كذلك أصبح فن المقابلة وتحليلها أكثر عمقاً، ولم يعد عشوائيا ومتسرعاً. وكذلك دخلت دراسة العلاقات بين المجموعات داخل حقل البحث. وحالات الصراع والتحالف والتنازع بين أفراد الجماعة.

لاحظنا ذلك من خلال مشاركتنا المتكررة في المؤتمرات العلمية المتخصصة لدراسة الحركات الإسلامية وإشكالياتها واحتكاكنا المباشر مع العديد من الباحثين وأساليبهم البحثية وما يتعلق بها[17]. ورصدنا مدى استخدامهم للمفاهيم والمقاربات والنظريات والأدبيات الحديثة للعلوم الاجتماعية والإنسانية.

تبين لنا في الواقع، أن مفاهيم مثل الإشكالية والفرضيات والأدوات المنهجية أصبحت جزءاً أساسياً من أي بحث، ومقوماً أساسياً له. ودخلت المفاهيم كتصور نظري وعقلي محض من جهة، وكمفتاح تحليلي وتفسيري من جهة أخرى. وقد تعددت وتنوعت المقاربات التحليلية التي استفادت من العلوم الاجتماعية وتقنياتها في هذا المجال، وخاصة في مجال تحليل الخطاب ودراسة الحالة والجماعات البؤرية (Focus Groups)... إلخ.

---

(16) انظر على سبيل المثال: عبدالحكيم أبو اللوز: الحركات السلفية في المغرب (1917-2004) بحث أنثروبولوجي سوسيولوجي، مركز دراسات الوحدة العربية، 2004. أيضاً انظر: عبدالملك بن محمد عيسى: حركات الإسلام السياسي في اليمن. مركز دراسات الوحدة العربية، أحمد زغلول شلاطة: الدعوة السلفية السكندرية، مسارات التنظيم ومآلات السياسة، مركز دراسة الوحدة العربية. أيضاً انظر: عبدالغني منديب: الدين والمجتمع، دراسة سوسيولوجية للتدين في المغرب، دار أفريقيا الشرق، المغرب، 2010.. ستيفان لاكروا، أحمد زغلول شلاطة، ترجمة: عومرية سلطاني.

(17) بحوث ومناقشات ندوة في إصلاح المجال الديني (2017)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. أيضاً انظر: الحركات الإسلامية في الوطن العربي (عمل جماعي تحت إشراف الدكتور عبدالغني عماد) صادر عن مركز دراسات الوحدة العربية، 2013. أيضاً انظر: أعمال مؤتمر: الإسلاميون وقضايا الدولة والمواطنة (جزآن) صادر عن المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات 2016-2017.

في المحصلة تبلور لدينا تيار جديد من الباحثين الشبان الإسلاميين يمتلك من العدة النظرية والميدانية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، ما يجعله يقدم مقاربات ورؤى متنوعة للواقع الذي يقوم بدراسته.

في المحصلة لدينا ثلاث خلاصات في عملية توظيف الإسلاميين للعلوم الاجتماعية والإنسانية:

الأول ينتظم تحت عنوان أسلمة المعرفة وتأصيل العلوم وهو بتقديري سجل نجاحاً نسبياً.

الثاني ينتظم تحت عنوان الاتجاه المؤسساتي والخدمي. وهو الأكثر استفادة من الناحية التطبيقية، ويسجل تقدماً وازدهاراً أكثر من غيره.

يبقى الميدان البحثي، وهو ميدان جديد بالفعل، ويتطور بسرعة متفاعلاً مع مختلف الاتجاهات السائدة في عالم اليوم.